شيء من الفكاهة

جاءت الإشارة إلى الضحك في القرآن الكريم مرة في قصة إبراهيم ، ومرة في قصة سليمان عليهما السلام .

ففي قصة إبراهيم : يقول إبراهيم حين زارته الملائكة فلم يعرفهم وخافهم حين بشروه بولادة إسحاق من زوجته سارة :

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

[سورة هود: ٧٠-٧٢]

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك محللا في مواضعه المختلفة من تحول الشعور للمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة بعد سن اليأس، وخيبة الأمل في الذرية زمنا طويلاً تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والعزاء والغيرة والتسليم.

ولا تعني هنا كلمة " سُرَّت ، أو كلمة استبشرت ، أو فرحت " في مكان ضحكت ، لأن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات ، وجاء في القرآن الكريم عن قصة سيدنا سليمان عليه السلام :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [سورة النمل:١٩]

فهـا هنـا عوامـل الضـحك علـى سـجيتها ماثلـة في نقائضـها الدقيقـة ومصـاحباتها التي تقترن بها على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهي مناسبة مخالفة في بعض أجزائها لمناسبة الضحك في قصة إبراهيم . هنا الفرق الشاسع بين ضآلة النملة وبين ضخامة الملك الذي أوتيه سليمان .. وهنا رضي سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة والغبطة وتلهمه من الشكر والخشوع ، وكل ذلك آت من حيث لا ينتظر من نملة ضئيلة تخشى أن تحطم هي ووادیها كلها ، ولا يشعر بها سليمان العظيم . وورد الضحك في آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء.(١)

والضحك فضلاً عن وروده في القرآن الكريم ، فقد تناوله علماء التربية وعلم النفس على أنه ضرب لازم للنفس البشرية ، ففيه الراحة والعزاء " وزبدة راي فرويد أن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي ، يلجأ إليه الإنسان في المجتمع ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ، ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه، وهي التورية والتأويل والاختزال والمسخ ، أي جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لا تجتمع في الواقع .

ومن الناس من يقولون عن الرجل : إنه بمزح أو يقولون عنه إنه يحلم على السواء ، حين يريدون إعفاءه من المؤاخذة ، ولا يريدون الجد معه في المحاسبة

والتحقيق . وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل وكذلك يحتال في أحلامه على تحقيق الأماني التي تفوقه في اليقظة وتشغل باله على غير جدوى "(٢) .

فكاهات غنيم :

وقد حظيت الفكاهة بنصيب كبير في ديوان الشاعر غنيم ، ونستطيع أن نستعرض بعض النماذج من شعره الفكاهي على سبيل المثال لا الحصر.

* وقع أحد أصدقائه من الشعراء ضحية نشال (لص) محترف ، فسرق نقوده كلها .. فكتب غنيم يداعبه مبينا له أنه أرهق اللص وخدعه ، إذ لم يجد صيدًا شينا لخواء جيب الصديق ، يقول :

هون عليك وجفف دمعك الغالي ... لا يجمع الله بين الشعر والمال
إنا لفي زمن فقد النقود به ... يدمي العيون كفقد الصحب والآل

ثم يتكلم على صديقه الشاعر مداعبا :

من أين أصبحت ذا مال فتسلبه؟ ... يا أشبه الناس في رقة الحال
فيالها سبعة في جيبك انطلقت ... وأنت أحوج مخلوق لتمثال
فريسة من يد السنور سائغة ... شتان ما بين سنور ورئبال
عوذ نقودك واعقد حوالها عقدا ... وثيقة تتحدى كل حلال
قالوا خلت يده من كل ما ملكت ... فقلت : بل رأسه من عقله خال
لم يبق عندك ما تخشى عليه فنم ... كما أنام قريرا ناعم البال
نفسي فداؤك ليت اللص صادفني ... قد يغلب اللص بالإفلاس أمثالي ! .

ثم يعجب غنيم مما حدث ويتساءل مداعبا : كيف يقضي هذا المسكين بقية أيام الشهر ؟

يا ليت شعري ، ماذا أنت صانعه ؟ أتزمع الصوم حتى شهرك التالي؟
عش من قريضك في ري وفي شبع إن كان ينتفع الظمآن بالآل
أقسمت ما سليت تلك النقود يدُ لكنها أبِقَت من جيبك البالي
الذئب لا يشتهي لحم ابن جلدته فكيف أوقع نشال بنشال؟ (٣)

* الآل : السراب

* أبِقَ : هرب

ومن فكاهاته اللاذعة : ما قاله عن صديق له مشهور بالخوف والفزع من أقل الأشياء ، أغمي عليه في المخبأ عند أول غارة جوية حدثت إبان الحرب العالمية بمدينة الإسكندرية ، **فكتب يقول مداعبا** :

أرأيت صنع محمد في مخبأ بالناس حافل
سمع الصفير مدويا فتفككت منه المفاصل
ما كان أشجعه فقد لا قى القنابل بالقنابل

ووهبت عزيمته فأفلت يابس منه وسائل!

وضاعت من الشاعر ساعة كان يمتلكها ، فحزن عليها كثيرًا ، فكتب يصور حاله حزينا لفقدها :

وساعةٍ كالسوار حول يدي حتى طواها الزمان للأبد
ما زال يطوي الزمان عقربها ضاعت فوهى ضياعها ولدي
ضيعها نجلي الصغير وكم حملني من خسارة ولدي

قالوا : فداءٌ له ، فقلت لهـــــم كلاهما فـلذتان مـن كـبـدي

قالوا : التمس غيرها فقلـت لهـم وهل معي ما يقيم لـ ي أودي ؟

ثم يبين أن أحواله قد ارتبكت ، واطلخم عليه الأمر بسبب فقدانها ، كيف لا ؟ وهي التي كانت تنظم له أوقاته ، ومن خلالها تتحدد مواعده ، وتنجز أعماله يقول :

التبســت أيامي عـــلـيّ ، فلا أفرق ما بين الســـبت والأحد

واختل وقتـي فـإن وعـدتك أن أزورك اليوم ، جئت بعـد غـد

أمســت يـدي بعـدها معطلـة منظرها في العـيون كالرمـد

قد لازمت معصمي سـنين إلـى أن أصبحت قطعة مـن الجسـد

وفي نهايـة القصـيدة ، يـدعو على مـن سـرقها بـالهلاك والبـوار ، والخسـران يقول :

شـتان بينـي وبـين لاقطهـا بات قريرا ، وبت في كـمـد

ليـت الـذي طوقـت بهـا يـده في جـيده حبل شد من مسـد

وعن ديك هزيل أقام به للشاعر أحد أصدقائه مأدبة في سفح الهرم ، فكتب يقول في دعابة ومرح :

يـا صـاح مالـك والكـرم البخل طبعـك مـن قـدم

شـهـدت ببخلـك ليلـة قمـراء فـي سـفح الهـرم

تبـا لـديكك يـا أخـي هضـم الحديـد ومـا هضـم

ثم يصف هزال الديك وضعفه قائلا :

ديـك هزيـل الجسـم تـر كلـه الجـرادة بالقـدم

فـي دولـة الأديـاك كـان مـن السـعاة أو الخـدم

خلناه في الأطباق رسما بالمداد وبالقلـم

جلـد يحـيط بأعظـم لا لحـم فيـه ولا دسـم

زعموه روميا ومنـه العرب تبرأ والعجم

اشتبك صديقه (العوضي الوكيل) في شجار مع الجيران ، بسبب كلب فاقاموا عليه قضية وضع بسببها في قفص ، فلنب براعبه قائلا :

حبسوك في قف ولسـت بضـيغم لكن نزلت به نـزول المجـرم

اليوم في قفص حللت وفـي غـد تلقي الرحال بقعر سجن مظلـم

عجبي عليك يكرم الكلـب الـذي خاصمته وتبيـت غيـر مكـرم

فيم اشـتباكك بـالكلاب ؟ وإنمـا يحنو القريب على القريب المحـرم

وذهب يزور صديقه (محمود الخفيف) في منزله ، فقال مداعبا :

صـاح قـد جعـت فهـيء لـي كبابـا ورغيفـا

واسـقني شـايا ثقـيلا قاتـل الله الخفيفـا

القريب المحرم : هو الذي لو كان أنثى ماحل زواجها ، كالأخ والخال والعم وما إلى ذلك .

ومن فكاهاته الطيبة أنه تآمر عليه صديقان له ، واحتالا عليه حتى دعاهما لمأدبة طعام في مطعم مشهور ، فلما أحس كيدهما له في المغالاة فيما يطلبان

غافلهما وانصرف خارجا من المطعم وتركهما يدفعان ثمن الطعام كله ، وأنشد يقول في ذلك :

رامـــا الغـــذاء علـــى حســـابي فتقاســـما ثمـــن الكبـــاب
وخلت جيوبهـــــــما فلـــــم يجـــدا ســـوى رهـــن الثيـــاب
عضـــــا الأنامـــــل بعـــــدما عضـــا الحمـــام بكـــل نـــاب

من قال : إن عليّ إطعـــام المساكين السغاب .

أنـــا لا أغـــــذي الـــبطن يـــو مـــا بالطعـــام أو الشـــراب
لكـــن أغـــــــــذي العقـــل إن هـــو جـــاع بـــالأدب اللبـــاب

وشرب الشاعر قهوة لم تعجبه عند صديقه العزيز (عزيز) **فقال** :

عزيـــز لـــيس بالرجـــل العزيـــز بخيـــل بخلـــه بخـــل غريـــزي
لديـــه قهـــوة مـــن غيـــر بـــن يحليهـــا بملـــح إنجليـــزي

ولكن (عزيزا) عاد فبرهن على كرمه ، فدعا الشاعر إلى وليمة ، طيبة أكثر فيها من ألوان الطعام ، **فأنشأ الشاعر يقول** :

أقسمت لم تك يا عزيـــز مقصـــرا بل كنت مثلي في السخاء وأكثرا
لكـــن بخلـــك لا يـــزول بـــدعوة يا صاح بل لا بـــد أن تتكـــررا

* **اللباب** : الخالص .

○ **ومن نوادره** :

شكا الشاعر (العوضي الوكيل) لشاعرنا قرار حظر ذبح المواشي بضعة أيام **فراعبه بهذه الأبيات** :

قـــرار الـــذبائح لمـــا صـــدر بكى ابن الوكيل بـــدمع المطـــر

وأقسم ما شم ريح اللحـــــــــوم ولا ذاقهـــا مـــرة فـــي العمـــر

وهل يأكل الكـبش لحـم الشـياه؟ وهل يأكل الثور لحـم البقـر؟

وما أنت واللحم يـــاابن الوكيـل؟ بحســبك أكـل لحـوم البشـر

وقال يداعب ابن الوكيل :

يـــا بـــائع الليمـــون فـــي الأســـواق بـــالثمن القليـــل

إني أدلك – إن أردت غنى اليهـود – علـى السـبيل

اعرضه في الحفلات بعد سماع شـعر ابـن الوكيـل

وفي مداعبة أخرى لصديقه ابن الوكيل يقول :

أنـــــا إن أردت تخلصـــــــا في البيـت مـن ضـيف ثقيـل

أنشدت هذا الضيف بيـتا واحـدًا لابن الوكـيل ولو أنني ثنيت أقـــعده الصداع عن الرحيل وهكذا كان الشاعر محمود غنيم خفيف الظل ، ظريفا ، يتمتع بروح الدعابة الجميلة ، والفكاهة الباسمة وكان يشيع جوا من المرح والسرور في نفوس رفاقه وأصدقائه .

الهوامش

١- عباس محمود العقاد ، المجموعة الكاملة ، المجلد السادس عشر ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩٥ ، ٣٨٦ .

٢- محمود غنيم ، صرخة في واد (قصيدة : مداعبة صديق) ص ٢٥٣.

٣- نفسه(قصيدة : في المخبأ) ص ٢٥٨.

٤- محمود غنيم ، في ظلال الثورة (قصيدة : حبسوك في قفص) ص ٥٨٦

٥- نفسه (قصيدة : أي الخفيفين ؟) ص ٥٨٧.

٦- محمود غنيم ، في ظلال الثورة (قصيدة : مؤامرة على شاعر) ص ٥٨٠

٧- نفسه(قصيدة : بخل غريزي) ص ٥٨١.

٨- نفسه(قصيدة : قرار الذبائح) ص ٥٨٥.

٩- محمود غنيم ، رجع الصدى (قصيدة : يا بائع الليمون) ص ٨٨٢.

١٠- نفسه (قصيدة : بيت واحد) ص ٨٨٣.